عنوان البرنامج: مبادئ التصوف وهوادي التعرف
الوحدة الأولى: مدخل لعلم التصوف
الدرس الأول: ماهية علم التصوف
اسم المحاضر: الدكتور إسماعيل راضي

ماهية علم التصوف

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

من كمال العناية الإلهية بهذا الدين الحنيف، أن هيأ له الله عز وجل الأسباب والدواعي لحِفظه ولخدمة أصوله وفروعه، فكان أن تحركت، لهذه الغاية، منذ الصدر الأول للإسلام جهود علماء الأمة، لتأسيس قواعد العلم وضوابطه، بما يكفل للدين وللمعرفة الإسلامية الاستمرار؛ فتوزعت جهود علماء الأمة، واختصت كل طائفة بتحقيق نوع من العلوم:

فمن العلماء مثلا من تخصّص في الحديث النبوي الشريف وعلومه فسُمِّي «محدثاً»، ومنهم من اشتغل بعلم الأحكام فسُمِّي «فقيهاً»، ومنهم من تخصص في التفسير فسُمِّي «مفسراً»، وهكذا...

هذه العلوم **المُحدثة**، – أي: التي لم تكن في زمن النبوة، وإنما أُحدثت لإرجاع الأمر إلى ما كان عليه زمن النبوة– هذه العلوم لم يُنكرها الناس، بل توافقوا عليها لأنها تخدم الكتاب والسنة، وتؤدي وظيفة البيان، وتعمل على تثبيت دعائم الدين.

وعلم التصوف هو كذلك من العلوم **الحادثة**، نشأ في أوساط السنة، وِفْق رؤية قرآنية وسنّية، مِثل ما نشأت المدارس الفقهية والعقدية والحديثية وغيرها...

وهذا العلم يُعنى بتحصيل المعاني الروحية والتزكوية والأخلاقية التي كانت سائدة ومتألقة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه... فلو سُئل عالم بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عن هذه المعاني الروحية والتزكوية والأخلاقية، وعن مواقع تأصيلها في الكتاب والسنة، لاحتج بنصوص صريحة وعديدة، بل ولقال بأن هذه الحياة الروحية والأخلاقية هي المقصود الأول من الدين.

نستغرب إذاً عندما نُصادف بعض الردود والمواقف التي تتسم بالجمود والجحود، والتي تتحرج من لفظ ومصطلح «التصوف»، ولا تتحرج من المصطلحات المُعتمَدة في العلوم الشرعية الأخرى، والتي لم ترد في القرآن ولا في السنة.

نعَم، مصطلح «التصوف» حادث، أما مادته فقديمة بقِدم الكتاب والسنة، شأن بقية علوم الدين، ولا مشاحة في الاصطلاح؛ ومن شاح في الاصطلاح فليس من أهل العلم، وأهل العلم لا يقفون عند الاسم بقدر ما يقفون عند ماهية العلم ومضامينه وموضوعه وأصوله، ومن وقف مع الألفاظ والمصطلحات فلن يجد أحدا في زمن النبوة أُطلق عليه وصف أصولي أو محدث أو نحوي أو سلفي أو حتى فقيه بالمعنى المتداول اليوم...

نقل الإمام الشاطبي في الاعتصام (1/148): «بأن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم باسم عَلَم سوى الصحبة، إذ لا فضيلة فوقها، ثم سُمِّي من يليهم التابعين،... ثم قيل لمن بعدهم: أتباعُ التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدَّة عناية بأمر الدين: الزهاد والعُبَّاد. قال: ثم ظهرت البدع، وادّعى كل فريق أن فيهم زهَّاداً وعُبَّاداً، **فانفرد خواصُّ أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله، الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف**»، وعلق الإمام الشاطبي على هذا الكلام بقوله: «فقد عُدَّ هذا اللقب لهم مخصوصا باتباع السنة ومباينة البدعة، وفي ذلك ما يدل على خلاف ما يعتقده الجهّال ومَن لا عبرة به مِن المدّعين للعلم».

أسوق في هذا السياق ما ذكره الشاطبي في [الاعتصام، 1/148] عن الصوفية –وهو الذي اعتمد على أكثر من أربعين شيخا من الصوفية الكرام في إقامة السُّنّة ودحض البدعة، قال: «إن كثيرا من الجهال يعتقدون فيهم أنهم متساهلون في الاتباع، وأن اختراع العبادات والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقتهم: إتباع السنة واجتناب ما خالفها.... وفي غرضي –إن فسح الله في المدة، وأعانني بفضله، ويسَّر لي الأسباب– أن أُلخِّص في طريقة القوم أُنموذجاً، يُستَدَلُّ به على صِحَّتِها وجريانها على الطريقة المُثلى». لكن المنية وافته رحمه الله دون تحقيق ذلك.

في زمن النبوة إذاً، كان للممارسة الدينية حالُها القلبي والأخلاقي والسلوكي، وهو المظهر والمقصَد الأعظم لهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم ضعُف على مرِّ الزمن هذا الحال النبوي، مما دعا أربابَ التقوى والورع، منذ القرون الخيِّرة الثلاثة الأولى، إلى أن يَعمَلوا هُم من ناحيتهم أيضا على تدوين عِلمٍ يخدُم هذا الجانب، والتأسيس لشرعيته من الكتاب والسنة، وترجمة أنواره من صدور الرجال إلى مرتبة

علم شرعي له قواعده وأحكامه، واصطلاحاته وآدابه المدونة كباقي العلوم الشرعية الأخرى، وتخصيصِهِ باسمِهِ ورسمِهِ؛ سَمّهِ: علم التصوف، أو علم التزكية، أو عِلمَ السلوك، أو عِلمَ التربية، أو ما شِئت... مما يتفق مع حقيقته وجوهره، هي قضية مصطلحات ولا مُشاحةَ فيها؛ قال الشاطبي في الاعتصام: «أهل التصوف في طريقهم كسائر أهل العلوم في علومهم».

وقد سُمّي هذا النهج عند السلف بتسمياتٍ معبِّرة عن حقيقته ك: «منازل السائرين»، و «مدارج السالكين»، و «قوت القلوب»، و «فقه القلوب»، و «علم السلوك» وغيرها... وسُمّي أهله، كما عند الشاطبي، ب: «أرباب السلوك»، و«أرباب التربية»، و«فقهاء القلوب»، إلى غير ذلك...

هذا الفن كذلك الذي يبحث في دقائق القلوب، كان أحيانا يأخذ عنوان «الرقائق» أو «الرقاق»، كما عند البخاري، ثُم تطور تماما كما تطور علم الأحكام إلى أن وصل إلى اسم الفقه.

قال ابن خلدون في مقدمته (3/989).: «هذا العِلم – أي التصوف– من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزَل عند سلف الأمة وكِبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريق الحق والهداية،... فلمَّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجَنحَ الناسُ إلى مخالطة الدنيا، اختصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية». فهو إذا علم نبوي أسّسه الوحي السماوي، ومارسه سلف الأمة وكبارها، وقعّدوا له منذ القرون الخيِّرة الثلاثة الأولى...

والأكيد أنّ التصوف الإسلامي (أو التصوف السني) تبلور ونضج واكتمل، كعلم له مبادئه وضوابطه، ابتداء من بداية القرن الثالث الهجري؛ ومن أقدم من صَنَّفَ فيه: المحاسبي المتوفى سنة 243هـ، والخراز المتوفى سنة 277هـ، والجنيد المتوفى سنة 297هـ، ثم الحكيم الترمذي، وهكذا...، وهُم جميعاً من صوفية القرن الثالث، مع العِلم أن مرحلة التدوين لا تكون إلا بعد نُضج العلم واكتماله.

هكذا إذاً «اشتهر التصوف في الأُمّة قريب المائتين من الهجرة»، أي: **قبل أن تنفتح الأمة وتتعرف على نتاج الثقافات** والفلسفات اليونانية والإغريقية وغيرها خلال حركة الترجمة المشهورة التي حدَثت في العصر العباسي الثاني، – وهذا نردُّ به على من زعَم بغير عِلم أن التصوف مشتق أو مأخوذ من هذه الثقافات– فالأمة عَرفت العديد من الرموز الصوفية التي لها مكانة عظيمة في تاريخ التصوف منذ بداية السنة الثانية للهجرة وما بعدها، كالفضيل بن عياض (107هـ187–هـ)، وإبراهيم بن أدهم (ت162هـ)، وداود الطائي (ت165هـ)، ومعروف الكرخي، (ت200هـ)، وكذلك رابعة العدوية (100هـ180–هـ)، وغيرهم... وهم جميعا من صوفية القرن الثاني الهجري... ثم جاء بعدهم المحاسبي (243–170هـ)، وذو النون المصري (245–179هـ)، ثم النوري (ت295هـ)، والجنيد (ت297هـ)

وغيرهم،... لنخْلُص أن التصوف تبلور ونضج واكتمل منذ القرون الخيرة الثلاثة الأولى.

أما فيما يخص اشتقاق لفظ «التصوف»، فقد اختلف الناس في ذلك إلى عدة أقوال، لكن أهل هذا الفن، ومنهم الإمام القشيري، أجملوا الأمر فقالوا: «ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب».

وقال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى في الحِكم:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقاً من الصـوف
ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتىً صفا فصوفِيَ حتى سُمي الصوفي

وفي هذا المعنى كذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى: «وليْس طريقُهُم مُقيَّداً بلباس الصُّوف ولا هُم أوْجَبُوا ذلك ولا علَّقُوا الأَمْر بِه،... ثُمَّ «التَّصوف» عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلّموا في حدُوده وسيرته وأَخلاقه... وهُم يسيرون بالصُّوفي إلى مَعْنَى الصِّدِّيق وأَفضَل الخلْق بَعْد الأَنْبِيَاء الصِّدِّيقُونَ؛ كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾».

أما في الاصطلاح، فقد قال الشيخ زروق في قواعده: «حُدَّ التصوف ورُسم وفُسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجعها كله لصدق التوجه إلى الله تعالى». فكل واحد منهم عبّر عنه بأحواله وبحسب ما وصل إليه في سلوكه وسيره إلى الله؛ «كلٌّ بِحَسَب مدرَكه ومشرَبه..» كما قال الحافظ عبد الله بن الصديق في كتابه (الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام)، فالحقيقة واحدة، ومهما اختلفت التعريفات في اللفظ والمبنى، فهي متفقة في القصد والمعنى، وتلتقي كلها على طريق الهجرة إلى الله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّه إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِير مُبِين﴾.

لابد أن أُشير هنا إلى أن الذي نعنيه ونتكلم عنه، هو التصوف الإسلامي الأصيل، وليس الدخيل؛ فكما هو معلوم: كلُّ عِلم إلاَّ وفيه الدخلاء والمدَّعون والمُغرضون، لكنَّ العبرة بأُصول العلم ومبادئه لا بمُدَّعيه؛ فإنْ ظهر أهل الأهواء في التفسير والفقه والأصول والحديث والتصوف، فالقاعدة، كما قال الشيخ زروق، أنْ: «يُرَدّ قولُهم، ويُجتنَب فعلُهم، ولا يُترَكُ المذهب الحق الثابت بنسبتهم له، وظهُورهِم فيه»

أكتفي بهذا القدر، وإلى الحلقة القادمة بحول الله.